أدب الأطفال في فلسطين

■ د. نادي الديك

الأدب نتاج حياة، إما بفعّلها أو يبحث عنها وديمومتها، أو يناهضها ويبحث عن شكل آخر لها، حتى تظهر للفتيان فلسفة جديدة، وبواعث حياة أخرى. لذا نجد النص الأدبي المفعل خالداً خلود الحياة، فمنذ الحضارة السومرية وإلى إن يشاء الله سبحانه والإنسان يبحث عن ذاته من خلال نص إبداعي، دون النظر إن كان النص كتب على لسان الكبار أم خصص لشريحة عمرية معينة، الأطفال مثلاً، حيث الهدف يكون واضح المعالم والدلالات، حتى تكتمل عناصر النماء والنهوض الإنساني، لأن النهضة تكون شمولية وليست أحادية الجانب، لأن مثل هذا الأمر يختلف حسب معطيات الزمان والمكان والصانع للحدث الإنساني. فالذي يستقرئ التاريخ يجد أن السومريين يسبقون غيرهم في صناعة أدب الأطفال، ولحق بهم الفراعنة والإغريق من بعدهم، ومن ثم ظهرت المدنية الأوروبية الحديثة بعد عصر النهضة ليفعل دور أدب الأطفال في الحياة، ويكون للأوروبيين السبق المعاصر كما كان للعرب السبق الحضاري في التعامل مع النص الإبداعي للأطفال، ومن ثم آخذ العرب بأطراف الحضارة المعاصرة وبدأت ملامح الحياة تتطور وتتبدل تبعاً للمعايير المختلفة، مما جعل بعض الشعراء في بلاد الرافدين ومصر الكنانة يسخّرون بعضاً من فنهم لشريحة الأطفال، إن كان ذلك عن قصد أو غير قصد، إلا أن مصر هي صاحبة السبق في هذا الجانب في هذا العصر الحديث لعوامل متعددة منها داخلية ومنها خارجية، علماً بأن نصوصاً إبداعية للأطفال جاء بها الرصافي والزهاوي أسبق في الوجود من نصوص أحمد شوقي، لكن معايير الحياة وتقلباتها السياسية والاجتماعية جعلت من أرض الكنانة بؤرة الانطلاقة في خدمة أدب الأطفال وتفعيله في الحياة.

حين نجد بلاد الشام ظلت تراوح مكانها من حيث النهضة الأدبية إذ ظلّ الشاميون يتتبعون خطى مصر في ميادين الثقافة والفنون الإبداعية المختلفة (من أدب وغناء وموسيقى وفن التمثيل)، وهذا الأمر ينطبق كلياً على واقع الحال في فلسطين، لأن المسرح مثلاً غدا صورة مصغرة لما يجري في الساحة المصرية من فن مسرحي، وغير ذلك من الفنون، لأن الساحة الفلسطينية ساحة متأثرة أكثر بكثير منها ساحة مؤثرة وهذا يعود لعوامل مختلفة لا مجال لسردها الآن.

أما ما يخص أدب الأطفال فنجد الأمر لا يختلف كثيراً عن الأجناس الأدبية الأخرى، ففي مطلع القرن العشرين، بدأنا نتلمس نصوصاً إبداعية مخصصة للأطفال أو تلائم الأطفال في فلسطين، وبالذات بعد عام 1908 عندما أعلن الدستور العثماني، الذي ساوى بين اللغات والقوميات، مما جعل بصيصاً من الأمل يتجدد في النفوس من خلال نفحة الحرية المبسطة التي أعطيت للناس عبر الدستور العثماني، لأن أصحاب اللغات الأخرى غير التركية بدأوا يكتبون باللغة الأم التي حرموا منها، وان كان الأتراك العثمانيون لم ينظروا إلى اللغة العربية على أنها لغة أجنبية، وذلك حفاظاً على مكانتها وكرامتها الدينية والعقدية. لذا نجد السنوات الممتدة من عام 1908 حتى عام 1918، قد شكلت منابت زمنية حقيقية لظهور النصوص الإبداعية الخاصة بالأطفال في فلسطين.

وهذا يعود لمساحة الحرية التي لم تدم طويلاً والتي اشتغلت من قبل الأدباء يتداولونها من خلال الجمعيات والنوادي والمدارس، وكان على رأس أولئك الأدباء والمهتمين «خليل السكاكيني، والشاعر اسكندر الخوري البيتجالي، وإبراهيم الأبراشي، ومحمد إسعاف النشاشيبي، وسعيد الكرمي، وعبد الكريم الكرمي، وإبراهيم الدباغ، واليعقوبي، والعدناني، وإبراهيم طوقان، وغيرهم من المبدعين إذا جاز التعبير.

والذي يتتبع يرى أن أول ديوان شعري يخصص للأطفال هو كتاب «البستان» الذي نشر في مصر عام 1927. أما إبراهيم الأبراشي فقد أصدر ديوانه (مجموعة أناشيد) عام 1928 في مدينة القدس، في ثلاثة أجزاء، ومن ثم ديوان الطفل المنشد لاسكندر الخوري عام 1936، وديوان المنظوم للشاعر نفسه وأناشيد الأطفال التي كتبها إميل الغوري (أناشيد وطنية) وخليل طوطح (أناشيد مدرسية).

أما ما يخص أدب الأطفال فنجد الأمر لا يختلف كثيراً عن الأجناس الأدبية الأخرى، ففي مطلع القرن العشرين، بدأنا نتلمس نصوصاً إبداعية مخصصة للأطفال أو تلائم الأطفال في فلسطين،

من خلال ما تقدم نقول إن جلّ تلك الأشعار والأناشيد تحمل في ثناياها البساطة في التعبير والبدائية في التفاعل مع الموضوع، إلا أنها ملائمة للأطفال من خلال لغتها وأساليبها الفاعلة إلى حد معقول.

أما ما يخص المسرحية فنجد «محمد عزت دروزة» الذي شغل منصب إدارة مدرسة النجاح في نابلس من الذين اهتموا بهذا الأمر، حيث حول رواية (وفود العثمان) إلى عمل مسرحي ثم عرضه على مسرح بلدية نابلس عام 1923م. وفي عام 1924 وضع تمثيلية بعنوان (عبد الرحمن الداخل). وفي عام 1925 وضع مسرحية أخرى أو تمثيلية تحت عنوان (ملك العرب في الأندلس). وتبعه جميل البحيري من حيفا وهو قريب للشاعر حسن البحيري، الذي كتب عدة مسرحيات مختلفة.

أما ما يخص القصة للأطفال، فتجدها قد تأخرت عن الظهور حتى الأربعينيات من القرن العشرين، وكان من روادها الكاتب (رائد عبد الهادي) صاحب سبق أو من السباقين في هذا المضمار حيث أصدر أول قصة له بعنوان (خالد وفاتنة) عام 1945م التي طبعت في مدينة القدس.

وتبعه يوسف هيكل بكتابه «أجداد النبي» الذي يشكل حلقة وصل مع الأطفال، والذي يتناسب معهم حتى سن الثانية عشرة. وأما محمود يوسف زايد فقد أصدر كتاباً بعنوان (يوليوس والتائه) الذي استمد عنوانه من التراث الإغريقي، على عكس العناوين السابقة التي استمدت من التاريخ العربي.

أما اسحق موسى الحسيني ومحمد العدناني وفايز علي الغول فقد أصدروا عدداً من القصص عام 1947م بمدنية القدس، وقد اعتمدت هذه القصص الحيوانات كي تشكل مدخلاً لنفوس الأطفال وقلوبهم وعقولهم بمسمياتها وحواراتها، وكأنها تعمد إلى النواحي التربوية أكثر منها إلى الناحية الفنية الترفيهية.

كلّ ذلك يرينا أن الصحف المحلية ساهمت في نشر ثقافة الطفل إلى حدّ معقول، كما هو الحال مع مجلة (السمير) التي صدرت في حيفا عام 1940، حيث أفردت بعض صفحاتها للأطفال الذين تتجاوز أعمارهم خمس عشرة سنة، ومجلة المنتدى التي صدرت عام 1943 والقافلة التي سبقتهما معاً الصادرة في حيفا عام 1907م.

أما بعد النكبة عام 1948، ورغم ما لحق بالشعب من شتات وضياع، إلا أن الجهود قد تواصلت إلى حدّ ما، لإنماء ما يخص الطفولة وآدابها، لكن ليس بالزخم الذي نجده في الفنون المعدّة للكبار، إلا أن «عبد الكريم الكرمي ـ أبا سلمى» واكب كتابة الأشعار المخصصة للأطفال، كي تبزغ في الوجود قصائد عذبة وشيقة بأوزانها وإيقاعاتها الجذابة وأفكارها ومضامينها الواضحة، وصورها المنتزعة من البيئة الفلسطينية الضائعة والعالقة في النفوس والعقول والذاكرة.

لذا نقول أن النكبة شجعت الأدب والفكر والثقافة لدى الشعب الفلسطيني، فأينما حلّوا أبدع بعضهم في بعض نواحي الحياة، ليظهر في الوجود الإبداع الفردي وليس الجمعي، كما هو الحال مع المجتمعات والشعوب الأخرى، وذلك لأسباب متعددة، قد تكون معروفة وقد تكون مجهولة، لا أنها تتجسد في عقول الباحثين عن الحقيقة.

أما الذين بقوا في فلسطين المحتلة فنجدهم يحاولون إبراز هذا النوع من الأدب قدر استطاعتهم، فنجد الأسماء التي بدأت في الأربعينيات تستمر في العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين، كما فعل عبد الرؤوف المصري في قصتيه (رغيف يتكلم) و(الأم الطموحة) اللتين صدرتا بالقدس عام 1957م. وكذلك أصدر فايز الغول ثلاثة كتب منها (أساطير من بلادي). أما السنوات اللاحقة وبالذات في (الضفة الغربية وغزة) فكانت سنوات عجافا حتى مطلع التسعينات إلا فيما ندر، لأن النتاجات الإبداعية تقوم على اجتهادات فردية خالصة، حيث الترجمة عن آداب الشعوب الأخرى تشكل ملاذاً بسيطاً لملء الفراغ في هذا الباب أو المضمار كما فعل (محمد شحادة)

الذي ترجم تسعة كتب وأهداها إلي أطفال فلسطين الذين يكرهون العتمة، وكان ذلك عام (1979). وبعدها رأينا جمعية رعاية الطفل في رام الله التي تبنت ترجمة بعض الأعمال الأدبية منها «حكايات الأطفال» (عام 1981). وقامت نجلاء شهوان بترجمة عدد من القصص عن الإنجليزية والألمانية ونشرتها عام 1992.

آما الذي اخذ الصدارة في الكتابة للأطفال في مرحلة السبعينات من القرن العشرين فهو الدكتور ابراهيم علم الذي كتب عام (1971) قصته (طارق قاهر البرابرة) وبعده علي الخليلي ومحمود شقير وباسمة حلاوة وسامية فارس وعبد الرحمن عباد وليانا بدر ومحمد جبر وإبراهيم حور وغيرهم من الذين ينتجون آو يحاولون نتاج ما يلائم الأطفال. وقد كتب محمد كمال جبر مسرحية للأطفال تحت عنوان (محاكمة الكبار) وقد ظهرت مؤسسات خاصة تعنى بالطفولة ومقتنياتها كما هي مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي التي أخذت علي عاتقها نشر بعض الكتب المترجمة عن لغات وثقافات الشعوب الأخرى، وما يكتبه أهل الحرفة من الفلسطينيين.

وبما أننا نستعرض تاريخ هذا الأدب المخصص للأطفال فلابدَ من قراءة بعض القصص والإبداعات الأخرى الصادرة عن مؤسسة تامر واتحاد الكتاب الفلسطينيين حول أدب الأطفال حتى نتمكن من استكمال الرؤية توضيح ما نصبوا إليه في هذه الأسطر الهادفة فأول هذه الأعمال التي تعمد إلى تعريف القراء بها هي قصة «هولاكو يلتحق بالمدرسة» للكاتب مجدي الشوملي - والصادرة عن مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي عام (2003). فالذي يقرأ هذه القصة يجد أن إخراجها مقبول إلى حد كبير والرسومات هادفة لإكمال الفكرة التي جاء بها الكاتب وتوضيحها، والخطوط واضحة ومقروءة أيضاً.

أما العنوان فنجده غير موفق، لأن القصة للمراحل العمرية الأولى للأطفال، وهي من السادسة حتى العاشرة تقريباً، ومثل هذه المرحلة لا تعرف عن هولاكو شيئاً. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نرى أن هولاكو دمّر كل شيء في بغداد بناءً على معطيات فكرية هادفة في حين أن هولاكو في القصة يعادي الآخرين جهلاً وعدم معرفة. لذا فإن العنوان غير لائق بالمقاييس كلها، علماً بأن الصورة تظهره أبله، وهذا ضعف إلى حد ما، إذ لا يوجد تناسب أو تناسق بين العنوان والدلالة والصورة، أما الفكرة العامة فنراها مقبولة، وهي رفض القوة الطائشة الهادفة التي لا يوجهها عقل أو فكر بناء، أو علم ينتفع به من خلال تسيير وتوجيه قوة الجسد. لذا نرى أن القوة العقلية سوف تتغلب على قوة الجسد، لأن العقل يشكل العمود الفقري في الحياة ومعطياتها، فكلما فعّل العلم في الحياة أصبحت سهلة ونافعة، كل ذلك يرينا أهمية التضامن المبني على فكرة ناضجة كما هي الحال مع أهل القرية الذين رفضوا تصرفات (هولاكو) مما حدا به أن تراجع وانخرط في المجتمع. بذلك توحدت القوتان (قوة العقل وقوة الجسد) خدمة للفكرة الهادفة التي جاءت بلغة سلسة خالية من الصعوبة وفيها نوع من الصعوبة وفيها نوع من التشويق.

لذا نقول أن النكبة شجعت الأدب والفكر والثقافة لأهل فلسطين، كما هو الشعب الفلسطيني، فأينما حلّوا أبدع بعضهم في بعض نواحي الحياة، ليظهر في الوجود الإبداع الفردي وليس الجمعي، كما هو الحال مع المجتمعات والشعوب الأخرى، وذلك لأسباب متعددة، قد تكون معروفة وقد تكون مجهولة، لا أنها تتجسد في عقول الباحثين عن الحقيقة.

أما قصة «سوا سوا» للكاتبة روز شوملي، الصادرة عن مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي أيضاً عام 2002 فنجدها تحمل فكرة جيدة، من خلال أسطرها لذا نقول: إن العنوان شيق ويميل للشعبية أيضاً، والرسومات جيدة لكن الصورة التي تظهر فارس وهو يغرس شجرة التفاح مع ابنة عمته أمجاد لا تعطي الدلالة المقصودة، لأن الشجرة التي تظهر في الصورة هي شجرة (سرو) وليست شجرة تفاح، وهذا تقصير واضح من المخرج والرسام معاً، لأنهما لم يكترثا لهذا الأمر، لأن الأطفال يميزون بسهولة بين شجرة التفاح وشجرة السرو، فهما معروفتان في البيئة الفلسطينية، والذي يتابع الصور

من الغلاف حتى نهاية القصة يجد رسومات متشابهة تعبر عن لوحة طبيعية واحدة فقط، وهي الاهتمام بشجرة السرو، في حين أن الطبيعة الفلسطينية مليئة وغنية بالأشجار المتعددة في الأشكال والصفات التي تميزها عن غيرها، بهذا نرى أن الرسومات غير موفقة إلى حد بعيد.

أما الفكرة فنراها جيدة وقد جعلتها الكاتبة تسير بطواعية دون تدخل وهي (تجنيس العمل) إذا صح التعبير، بمعنى أن كلّ جنس من الجنسين (الذكر والأنثى) له أعمال معينة خاصة به، وهذا ما ترفضه القصة، لذا تحاول الكاتبة استدراج فارس حتى يعود لرشده عندما رفض القيام بأعمال يراها أنثوية وليست ذكرية حسبما سمع وشاهد من أقربائه، في حين نجد والديه يتعاونان دون إثقال، وحسناً فعلت أنها تركت الأمور تسير طبيعية ولم تتدخل عن طريق الأم والأب عندما استهجنا تصرفات فارس، إلا أن التنشئة الصحيحة لفارس والنضوج عند الوالدين ، جعلت فارساً يعود إلى رشده والصورة للحياة التي لا تفرق بين الجنسين في العمل والمعاملة.

كل ذلك يرينا أهمية العمل الجماعي ، وجماعة التربية التي تقوم على أسس متينة، لأن العمل الشريف يجب أن يحترم دون النظر فيمن يقوم بهذا العمل، إذ لا يفرق بين رجل وامرأة في الحياة العملية، وإن كانت الكاتبة تريد إظهار أهمية الثقافة الشعبية على تصرفات الإنسان مهما كان، فالتسلط والتفرقة موجودان عند بعض الأسر التي تعوزها الثقافة والتربية الفاعلتين.

ما سبق كان قراءة سريعة لقصتين نثريتين، لذا لا بد من وجود نص شعري حتى تتم حالة الموازنة بين الأشياء، كي يتسنى لنا معرفة المواءمة الناقلة للفكرة والأسلوب هي الأساس في مدى فاعلية الشيء وعدمه. من هنا قمنا بقراءة ديوان شعري للشاعر أحمد دحبور والذي جاء تحت عنوان « كسور عشرية» والصادر عن مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي عام 2002 والموزع مجاناً على طلبة المدارس في فلسطين .

فالذي يقرأ الديوان يستنتج بعض الأشياء، نحاول تلخيصها في أسطر بغية الإفادة دون الإطالة وهي:

أن عنوان هذا الديوان «كسور عشرية» غير محبب عند الأطفال، لأن موضوع الكسور العشرية في الحساب موضوع غير شيق لدى التلاميذ ولا يتقبلونه بسرعة.

أما لون الغلاف فله دلالة الطفولة وطموحاتها، وإن كانت أماله في العلم تعطي إيحاءات جميلة، أما مقدمة الشاعر، فهي مكثفة تحاول إظهار فكرة عميقة تعيش في نفسية الشاعر عشرات السنين. لذا نجدها ليست شيقة عند الأطفال، لأنها تقدم للشعر يحكي عن مرحلة الطفولة وذكرياتها ولا يحكي عن الطفولة بلغة الأطفال المحببة، فلغة أحمد دحبور في جلّ دواوينه أقرب إلى الإنسان من لغة هذا الديوان.

فاللغة في الديوان تخاطب أناساً ناضجين متمكنين من اللغة إلى حد بعيد، فهي تخلو من الجاذبية ومن الإيقاع الراقص الجاذب، وكان الشاعر يعمد إلى خلق حالة لغوية خاصة به حتى تعبر عن مرحلة طفولته المعذبة، كما هي طفولة جلّ المهاجرين الذين حرموا من أرضهم وأوطانهم. في حين أن فكرة القصائد جلّها فكرة إنسانية عذبه واضحة المعالم والدلالات والأهداف، فهي تحكي فترة زمنية عصيبة بمقوماتها المختلفة مرّ بها الشعب الفلسطيني، حيث كان الشاعر صادقاً غير متكلف في القول والأداء، فنراه يتحدث عن المخيم والفقر والوحدة بين أبناء الشعب دون النظر إلى الدين أو العقيدة، وموقف الفكرة الشعبية والثقافة الشعبية من المعونات أو المساعدات، لذا نراه وقد جسدها بفاعلية، لكن لغته غير مخصصة للأطفال وإنما للذين يحملون بعداً ثقافياً معمقاً.

ما تقدم نقول: إن الأدب المخصص للأطفال في فلسطين، ما زال نطفة تحتاج إلى رحم سليم البنية حتى يصبح الأمر حقيقة والبنيان قائماً، وهذا يحتاج إلى أمور مختلفة ومقدرات عالية، حتى يصبح الأدب فاعلا مفعلا في الحياة، ويضعها بدلاً من أن يقف منها موقفاً سلبياً أو محاذياً لها فقط.

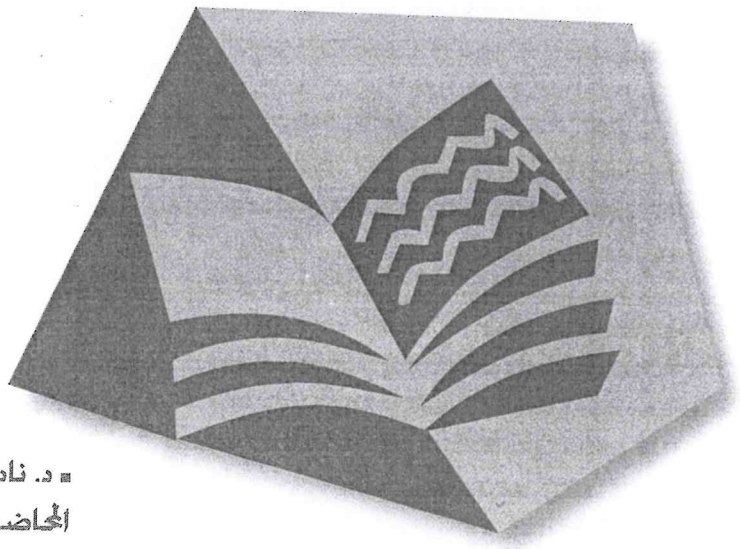

■ د. نادي الديك / استاذ الادب العربي في جامعة القدس

المحاضرة ضمن سلسلة محاضرات فرع ايبي - فلسطين